قصة بقلم
الدكتور نعيم عطية

اقبل الصيف الطويل الحار . ومضى وئيدا ثقيلا حتى انتصف شهر اغسطس .. فاصبح النهار في المدينة الكبيرة بين جدران الاسمنت المسلح ، وعلى اسفلت الشوارع قرصا برنزيا ملتهبا .

لم يكن زيد يحس بانه يحيا الا عندما يوغل الليل .. فترة القيلولة يلقي بجسده المهدم على فراشه .. يجاهد حتى يطرد عن ذهنه مشاغل المكتب ، فاذا راح في اغفاءة ايقظته جلبة العربات في الطريق فينهض غارقا في عرقه . لا يلم شتات جسده الا بعد ان يصب عليه كيزانا من الماء الذي دفأته الشمس في المواسير طوال فترة الظهيرة .. كان يطرد الصداع بأن ينحني تحت الصنبور .. كمن يسلم رقبته الى نطع الجلاد .. فتجري المياه على رأسه ورقبته وكتفيه وظهره وصدره وربما وصلت الى بطنه وعجزيه .

ثم ينزل الدرجات ويتلوى مع الحواري والدروب الهابطة النازلة .. قاصدا مقهى في وسط المدينة يجتمع فيه أشتات مختلفة من البشر القاطنين علب السردين المحشورة في مجتمعات اسمها عمارات .. يشربون المياه الغازية ويلهثون على الكراسي مثل سمكة في اناء .. مثل فار في مصيدة بانتظار نسمة تهب.. يرهفون السمع لها.. ويترصدونها من بعيد .. يغيرون وضع مقاعدهم اكثر من مرة في الامسية الواحدة .. فتارة يجعلون واجهتهم الى الميدان الكبير الذي يتوسطه تمثال لا يابه بحر الناس ولا ببرودهم ، يلبس منذ عشرات السنين معطفا سميكا اخضر مع الزمن ، كما اخضر طربوشه المائل على جبينه ايضا .. ينظر الى الناس بنظرات محملقة ويسائل نفسه ما الذي جعل الشوارع تمتلىء بالتماثيل ؟.. وقد اتخذت يمامة رمادية مكانها المختار على كتفه اليمنى وراحت في النوم غير آبهة بصفارات المرور وصخب العجلات وصيحات الباعة .. وتارة يجعل زبائن المقهى العتيق واجهتهم الى الحارة الجانبية التي يسري فيها تيار رطب فجائي طورا من الشمال الى الجنوب وطورا من الغرب الى الشمال الشرقي .. فاذا كان التيار من الجنوب الى الشمال اكتسح معه هبات من الغبار .

القى زيد بجسده على كرسي من الخشب الى منضدة ازدحم حولها معارفه .. تعالى صوت النرد ، وطرقعات الطاولة ، وكركرة الشيشة ، وصيحات « كش وزير » ونداءات بائع الفانلات وامواس الحلاقة والمناديل .. وصرخات آكلة النار .. والبيانولة العطلانة التي تصدر منها النغمات المألوفة عرجاء شاكية تآكل التروس وقلة التزييت.. بل وباعة الفراخ البدارة .. والفزدق .. ـ ان كان ثمة فزدق ـ والاكواب الكريستال .. والصيني .. والامشاط وولولات الشحاذ الاعور .. اشياء تعطي الاحساس باننا على قيد الوجود .

سرح بصر زيد عبر الشارع .. استوقفته على الطوار المقابل شجرة تكاد تكون جرداء .. وبجوارها عمارة جديدة صاعدة .. خيل الى زيد انها تبوح له بشيء .. صمت كل ما حوله .. سمعها تهمس اليه :

ـ لمن البقاء ؟

لم يدر لسؤالها اجابة . تغيرت الاضاءة . بدا الوجود من حولها بنفسجيا . شجرة في مدينة . يحاصرها اسفلت الطريق ، ويخنقها دخان المصانع . والنسوة يلقين مياه الغسيل عند قدمها فتمتصه جذورها العطشى وتلتهب ، وتحمله اغصانها الى اوراقها فتذبل وتتساقط دموعا . الحوذيون الى جذعها يربطون افراسهم . السكارى في الليل على صدرها يرتمون ، وهي في الليل تظل ساهرة حزينة .. الاطفال على ساقها يبولون ، وهي صاغرة كليمة .

اهتزت اطراف اغصانها .

اوراقها تبحث عن نسمة نقية ، بكل عناء . لم تعد تقوى على الوقوف ممشوقة مرفوعة الراس فتية . شاحبة شقية . تكاد تختنق .

تنهدت . مضت في شكاتها :

ـ عجوز انا رغم انني في ريعان الشباب صبية .

مالت الى العمارة من خلفها ولا زال طلاؤها لم يجف . نكست الشجرة رأسها ، وقالت :

ـ وقد سمعت بالقرب مني المعاول تدق الارض ، ورأيت الفعلة يرمون المسلح ، ويضعون الطوبة فوق الطوبة .

اختلج صوتها ، كما لو كان قد جثم قاتل على صدرها :

ثم صاحت تستغيث :

ـ بالله نسمة نقية ! نسمة نقية .. تبرد النار التي فيّ !

نهض زيد . أخذ كوبا من الماء . ذهب اليها والقاه عند جذورها العطشى . ربت على جذعها ، فمنذ صغره كان يحب الشجر ، وكان يقول لامه « حبيبتي شجرة عجوز ، كلها بثور وندوب » انت اغصانها .

ثم قالت :

ـ ارتفعت الى جواري عمارة ، واشرأبت تناطح السحب .. وتعالى الدبيب على اسفلت الطريق .. واقبل السكان وسكنوا .

ثم صمتت . لم تغالب الما ، فجاء صوتها متكسرا :

ـ سمعت البعض يحدث المالك امس ، ويشيرون اليّ .. فهمت انني لم اعد مرغوبة . اغصاني واوراقي تحجب عن السكان منظر الميدان . يا لي من شقية !

ثم اختنمت كلامها ، كما لو كانت تسير الى ساحة الاعدام :

ـ غدا ستأتي البلدية ، وتفسح المكان للوحوش الضارية ..

نكس زيد رأسه . صدق على كلامها قائلا :

ـ للفيلان بلا قلوب ، أهل المدينة !

فتحت اشارة المرور . انطلقت السيارات مسرعة ، تنفث الدخان من خلف ، وتصخب عجلاتها ومضخاتها وتروسها الحديدية .

ادرك زيد ان الليل يمكن ان ينصرم دون أمل . آثر ان يصعد الجبل كما اصبحت عادته في الآونة الاخيرة .. حيث تتسع الارض في ضوء النجوم ، ويغرق الضجيج فيها حتى يكاد يكون الصمت أزليا .. عالم شفاف لا يخطر ببال أحد من المحملقين في اضواء المدينة .

سار زيد في الطريق . تحت نعل حذائه جثة ، كلما مشى سمع قرقعة عظامها . لا يعرف ماذا يفعل . يخشى اذا خلع حذاءه ان يمرض ويمسي جثة هامدة تدوسها النعال .. فكر ان يقفز في الهواء ، ان يطير ، لكن كان من المستحيل على مثله ان يطير . مضى زيد يسير في الطريق الصاعد على سفح الجبل ، محني الجذع ، يقاوم الجاذبية التي تشده الى أسفل .. وهبات الهواء التي تدفعه في صدره .. يدور كلما دار الطريق ، ويستقيم اتجاهه كلما استقام .. ابتعدت المدينة .. تبددت اصواتها .. ولاحت اضواؤها من بعيد كآلاف الزوارق المضيئة في بحر مغلق . عوى ذئب في احد المدروب الجانبية . تحت .. تمهل زيد .. أطل عليه .. اعادت تلك الهيئة الضارية للوجود كل توازنه . ها هو زيد يصعد . يصعد المنحدر في هدوء ، وقد تحررت خطواته . كثافة الجو تخف . سهل العبء على كاهله .. نظر الى المدينة.. ها هي ملقاة عند قدميه .. تتوجع جاحظة العينين .. تلهث في شقاء .. وتجاهد للوقوف على ساقيها لتمضي فرحة الى البالوعة .. وعلى السفح تقف الاشجار المهيبة الشامخة ، ترشف ظلالها السوداء وقع الاقدام على صخر الطريق الوعر ، وترقب متوجسة الصاعد في طريقه المتعرج ليختفي عند منحنى الدرب الذي يضيع في الطبيعة اللانهائية .

ستائر كثيفة من السكون .. كهرمان أسود .. تيار من الذكريات ينساب في صمت .. جلس زيد على صخرة منعزلة يرنو الى السماء من فوقه .. ذكريات بعيدة .. تذكارات طينية . غاصت المعدية في النهر .. فلاحون ومواش لقوا مصرعهم .. رفست دابة القاع المتآكل .. خرقة حافرها .. تسربت المياه من الشقوق .. كانت المعدية عطشى .. لم يتمكن الاطفال على الاخص من النجاة .. ولم تنتشل كل الجثث .

أطل فأر رمادي من جحر قريب ، وقال باستخفاف :

ـ زيد من الناس بالخارج .

سألت الفأرة من داخل الجحر :

ـ أي زيد هذا الذي يترك صخب الحياة في المدينة ، ويجيء الى صمت القبور هنا ؟!

ـ انه يتطلع الى فوق مذهولا ويتمتم ..

ـ لعله عاشق ..

ثم تسرب الارتياب الى صوتها :

ـ أو لعله هارب طريد . يطلب الاختفاء عن العيون . يتلمس الامن والنجاة .

ـ هؤلاء البشر مخلوقات حقيرة .. ومغرورة ايضا . تدعي الصمود وهي تفر . قدم الموت الثقيلة تطؤها في كل مكان . ليس لها جحور تحتمي بها مثلنا .

ادار عينيه الصغيرتين فيما حوله وقال :

ـ شيء رائع . أرى الارض من نافذتي . لا صوت يبدد هذا السكون المطبق حتى لاسمع نبضات قلبي !

زاد صوت الفأرة الجبلية انكتاما . كانت منشغلة بقرض شيء داخل الجحر :

ـ يبدو انه منظر ممتع حقا !

ـ ليتني استطيع ان اصفه . تعوزني الكلمات دائما .

ـ ترى ، هل بدأ موسم الاوكازيونات هناك ؟

ـ يبدو الامر مبالغا فيه . الا توافقينني ؟

ـ اعرف . للاوكازيونات فعل السحر دائما .

ـ لا أقصد الاوكازيونات . اعني الاعتقاد باننا المخلوقات الوحيدة في هذا الكون . ليس بالسهل التصديق . قد لا تكون ثمة انماط ارقى منا .. لكنه شيء بعيد الاحتمال ان تكون القدرة التي تبث الحياة والنظام في جحورنا قد حصرت الخلق والذكاء كله فينا .

خيمت برهة . رفعت الفأرة المختبئة صوتها من اعماق الجحر :

ـ هل أعد لك قضمة من السجق ؟

ادار رأسه ، وادخله الجحر . ابقى راحتيه الصغيرتين متعلقتين بنافذته كأنه يخشى السقوط . تشبثت مخالبه بحافتها . جاء صوته مكتوما :

ـ الجحر ملىء بما لذ وطاب . اريد وجبة كاملة .

ـ حسنا ، عليك الانتظار بضع دقائق ، حتى اعد لك بعض مكعبات السكر .

تأمل الفار الكون الرحيب من حوله مليا . حصى رمادي ابيض برونزي . الاشجار من بعيد اجرام عدوانية غارقة في ظلالها . وقدت دقات ساعة الجامعة من بعيد ، مخنوقة خافتة . اجفل الفار ، وانسحب داخلا بسرعة .

افاق زيد كما لو كان ثمة منبه مركب تحت قروة رأسه . عالم غريب . افق منحن . نجوم متناثرة . كرة زرقاء يسبح نصفها في الظلام . ظلال . ظلال . كأن الزمن قد توقف . والمكان ارجوحة رجراجة . كأنه راقد في سريره يرى حلما . الشباك في غرفته مفتوح ، ونسمات الليل تدفع النجوم القصية البعيدة في رفق الى احضان الستائر الشفافة . لا شيء يعادل الابتعاد .. الشوارع والحواري والبيوت والاحياء « تحت » تتكاثر مثل اورام خبيثة لا ضابط لها . كان زيد يريد شيئا له وحده . لا يتعقبه اليه في عزلته احد . شيئا صغيرا ، لا يشاركه فيه غيره ، لا يريد اقنعة خزفية ، اظافر مصقولة ، زهورا وحلوى ، الاعيب .. وابتسامات .. وببغاوات ملونة .. الناس ينظرون اليه .. يخشى عيونهم . يخالفهم . لفتاتهم تبعث الذعر وتسري الرعدة في عظامه . لم ينظرون اليه ؟ الان اظافره تضايقهم ؟ أم لان الشوك يغطي جسده ؟ أهذا سبب حسده ؟.. عطس ذو اللحية الحمراء في وجهه .. الوجود يغرق ، في النفق المعدني من حوله . تماسك . وتشبث بالصخرة الممتدة فوقه . وعلا الطنين والضحك والصراخ والانين . وصاح الكمساري بصوت عقيم : الجنة المحطة القادمة . هرولت الثيران البطيئة الى الباب تنطحه بقرونها الحداد . وانحشرت في الفتحة الضيقة . وعم الوجود ضوء ازرق . كنا نغرق . وتناطحت الثيران ، وبقرت البطون . وسال الدم على السيقان . وتناثرت في المحيط الاشلاء والشهب . وقام القاعدون على الكراسي ، وصفقوا ، وتوالت الخطب. ثم صفر الكمساري : جهنم المحطة القادمة . تعالى الصخب ، وعم الهرج . التفت الناس الي ، حدقوا في . تملكني الذعر ، انكمشت ، وتراجعت .. يالله ، لم ينظرون الي هكذا ؟ اضحى الوجود من حولي ظلاما . تراجعت ، وتراجعت ، وتراجعت . ومضى السفين في طريقه منطلقا . وبقيت وحيدا في العدم ، أجري متخبطا ، على شاطىء الشمس وقد جفت الدماء في عروقي . ومن حولي العدم اضحى تجربة ارجوانية . في نفسي التي سرت فيها الرعشة المظلمة عند الجذور ، وفي الساق ، وفي الاغصان اليابسة .

كانت هذه رقصة كل يوم ، من البيت الى الديوان . في مركبة مثل جاموسة حمراء متخمة . كان لا بد ان يلوذ زيد بالجبل الرحيم الخالي حتى يجمع شتات نفسه في ليالي الصيف الحارة . انه يذكر الآن رفاقه في المقهى . يكاد يراهم في اجسادها العتيقة الهدمة تجلس ارواح العجائز لا بد ان تيسير يرشف فنجان الشاي الاسود ويشعل اعواد الثقاب الواحد تلو الآخر لتنفث النار في غليونه . وتيسير الثالث يطلب قدحا رابعا من الجعة المثلجة . ما اسهل المتعة .. زر

صفير .. تضغط عليه .. وكل شيء يدور .. الوان حمـــراء وخضراء وصفراء .. وابتسامات .. ما أسخف كل شيء . امـــا تيسير الثاني فيحكي للرفاق سبب غياب الصديق تيسيـــر السادس عـــن القهى . وتيسير الخامس يلقي باسئلته المبلبلة على الصحاب « ايهما وجد قبل الآخر .. الليل ام النهار ؟ » وكان لا بد ان يكون وراء وجهـــة النظـر الاولى منطق وحجج ، ووراء وجهة النظر الثانية منطق وحجـج ايضا . الوحوش الحزينة تجلس على الطبلية .. كـم هي ضجرة بالحياة التـي تحياها .. وكم ترتعد خشية ان تفقدها .. فكم تحب الحياة تلك الارواح المبلبلة المتناقضة .

زعق على غصن بعيد طائر من طيور الليل ، ثم مـا لبث ان اطبق الصمت من جديد .

نظر زيد الى السماء ، كما يفعل دائما ، بانتباه كبيـــر . كانت السماء تتكشف الليلة ببريق ووضوح غير معهودين . شاهد شيئا يصعد من نجم الى نجم . قال لنفسه : مركبة فضاء . ثم امكنه ان يتبين بعـد هنيهة ان ما شاهده كان دراجة يقودها راكبها في هدوء عابرا بهـــا السماء من طرفها القصي الى طرفها القصي الآخر . كان يسير بمطيته صعودا وهبوطا كما لو كان يصعد تـــلالا ممهدة وينزل عليهـــا . كانت العجلتان تدوران بلا صوت. وبدا الراكب في قميصه وسرواله الابيضين المتنفخين كأنه زهرة لوتس خفية . كان في بعض الاحيان وراسه الـــى اسفل أشبه بجنين في رحم الليل الرحيب .

قال زيد معجبا : يا له من منظر رائـــع ! ينساب بين النجـــوم كفراشة ، كنحلة دؤوب تطوف بالزهور في بستان !

تعثر الراكب في سحابة . انقلب فجاة وتحطم . هوى على الارض. جرى زيد نحوه ، وهو يلوم نفسه قائلا : « حسدته ، كعادتـــك . شيء غريب . ما ان تعجب باحد حتى يحط عليه النحس ، وربما الخراب ! » رغم ان زيدا لم يكن من ذوي العيون الزرق ، وهؤلاء يقال عنهم انهـــم حساد بطبعهم . مـن الذي يقول ذلك ؟ امه بالطبع . كانت تقول ذلـــك نقلا عن جدته سيدة العارفين . كانت عالة ببواطن الامور . تنظر الـــى النجوم بعينيها اللتين كاد يختلط بياضهما بسوادهما ، وتقرأ الطالع ، وتحدد كثيرا مما سيقع في الغد القريب او البعيد . كانت ايضا تصنع احجبة .. صغيرة مبطوطة .. تعطيها للمحبين الذيـــن يذهبون للقاء ، وللتلاميذ عشية امتحاناتهم ، وللتجار الذين يخشون بـــوار تجارتهم او يطاردهم مآمير الضرائب يطالبون الاطلاع على دفاترهم ، وللزوجات اللاتي سافر ازواجهن الى بعيد . كانت تعطي الحجاب لصاحبه ، وتحذره مـن ان يفتحه حتى لا يصيبه شر كبير . ذات يوم جرؤ احد التلاميذ الخبثاء ففتح حجابا جلبته له امه من جدتي غفر الله لها ، فوجد مكتوبا به على قصاصة ورق اصفر قديم « انجح .. ما تنجح .. شالله مـا تنجح .. تنجح .. شالله تنجح .. ما تنجح .. شالله ما تنجح .. » كل الصفحة وظهرها لم يكن عليها سوى هذه العبارات . وقد نجح الفتى ذلك العام نجاحا باهرا ، ولكن اصابه شر كبير . كـــان بامكانه ان يلتحق بكليـة الشرطة ويتدرب على الكلاب البوليسية، او بكلية المبعوثين الدبلوماسيين فينعم برغد العيش متنقلا بين نيويورك وبيكين . كان مجموعه يسمـــح بذلك ، لكنه اصر ، دخل كلية لا يتعلم فيها الا كلاما .. واي شر ادهـى من ان يصر المرء على ضرره ، ويصم اذنيه عن نصح الناصحين ؟

جرى زيد نحو الرجل المحطم . جرى في اعقابه الفـــار الجبلي . كان حذرا الا يدوسه حذاء زيد ، وهـــو يهرول متخبطا بيـــن الصخور والحجارة . همس مناديا فارته . ثم وقفـــا وراء حجر قريب يتابعان زيدا ورفيقه .

قـال الفـار :

ـ كل يوم في معامل الابحاث مئات من اخوتنا .. جرذان كبيرة.. وفيران وليدة .. اناث وذكور .. تلقي حتفها .. تحت ضربات المطارق .. في المحاليل .. ولا احد يكترث .

اشارت الفارة بشواربها الى الرجل المحطم ، وقالت :

ـ في داهية .. من يموت .. سنملأ ببقاياه جحرنا .. تـرى ماذا يحمل في حقيبته المعدنية وراء ظهره ؟ وددت ان تكون فيها بعض ادوات الزينة . نفدت مني زجاجة الاكلادور . واصبع الروج عـــلى وشك ان ينقرض .

كان الرجل المحطم يتنفس بصعوبة . وقد ازرق وجهه .

ركع زيد الى جواره وسأله في لهفة :

ـ يا من اتيت من بعيد ، قل لي ما الذي تعرفه عن هذا العالم .. والعالم الآخر ؟

فتح راكب الدراجة شفتيه قليـــلا مرتين او ثلاثـا ، ولكنه لـــم ينبس بكلمة :

اعاد عليه السؤال . الح . لم يجب . فوجه اليه سؤالا آخـــر علـى عجل :

ـ ارجوك ، ايها الطائر الحبيب ، يا من تجولت هناك ، قل لي عما اذا كان للانسان ثمة أمل..

خيم الصمت ذاته ، ولا اجابة .

ـ اني اتوسل اليك . قل لي ! هل للانسان امل ؟

ندت من الرجل المحطم حشرجة ثم همس بصوت متكسر :

ـ كنت أؤدي واجبي .. بامانة .. بلا جلبة عالية .. هزة غريبـة فجائية .. طقطقة غامضة .. زهور كثيرة هناك .. فـــي جيبي زهـرة واحـدة .

سأله زيد وقد استقرت انظاره على شفتي الرجل المكوم علـــى الارض .

ـ زهرة السعادة ؟

لا اجابة . سال خيط من الدم الاحمر القاني من جانبي فمه .

اردف زيد يسأل :

ـ الحقيقة ؟

زحفت غشاوة شاحبة على وجه راكب الدراجة .. بدا وجهه مثـل وجه القمر في ليالي الخريف .

ـ الحياة ؟ الموت ؟

لوح الرجل المحطم بيده في حركة واهنة اخيرة ، وهمس :

ـ الروح .. بالروح .. تعرف !

كانت قبضته مطبقة . هجم عليها زيد بضراوة يحاول فتحها عنوة. انتزع منها شيئا يبدو انه كان متناهيا في الصغر .. ذرة .. لـــم تبن بين اصبعي سبابته وابهامه وهو يرفعهما الى الضوء عاليا منتصرا .

قال الفار الرمادي بصوت تبدد في الهواء :

ـلا شيء .. بذرة وهمية .

اردفت الفـارة :

ـ هي بداية الشقاء دائما .

ـ وربما الدمار ايضا ..

ـ عندما يجد الكنار باب القفص قد انفتح يخرج .. يطير بعيدا.. ويعتقد ان قضبان العبودية قد انكسرت الى الابد .

صاح زيد يحادث نفسه ، او ربمـــا يحادث السماء الصامتة ذات العيون الالف :

ـ وجدتها . ها هي في جيبي الآن .

حدق اليه راكب الدراجة مركزا نظراته الحزينة في عينيه . ثم مال راسه المشجوج ، ولفظ انفاسه .

مضغ زيد في صياحه :

ـ يقولون الزهور تحتاج الى مئة والفاكهة الى الف ..

ارتعش صوته :

ـ لكنا ما عدنا نثق .

تماسك صوته . اشار الى قبة السماء المليئة بالثقوب :

ـ لنهرب من الارض القديمة الى الارض الجديدة .

انخفض صوته . نظر مـن حوله :

ـ نحن على الحدود .. البحر من فوقنا عميق الزرقة ..

عبث الهواء بشعره . لوح بقبضته المطبقة ، وصرخ في وجه الليل الصامت :

ـ لكن الباب سيفتح .. المزلاج يتزحزح .. والقضبان تذوب مثل اعواد غاب تتكسر .

دقق النظر الى اصابعه :

ـ ها هي نقطة .. سهم يشير الى أعلى .. حتى أولئك الذين لم يولدوا بعد ..

رفع وجهه الى النجوم وهمس في لهفة الانتصار :

ـ حبيبتي لم تمت ، لا زالت تمشي في ظلال السحر، فوق الغصون وهامات الشجر . حبيبتي لا زالت حية ، تطـوف الحدائق والحقول ، والغدران والجسور . ربما أنت مـع الغروب ، أو ربمـا انت اذا الليل انتصف .

انكسر المحار . فاحت رائحة الصخور .. الالوان باهرة .. النظرة عذراء . ملأ رئتيه بالهواء الرطيب :

ـ الشباك ممزقة لكن الصيد وفير .. بالنهار ، ابحث عـن صور حلم ضائع .. ابحث بين يدي .. عند مفرق الطريق .. اينما قادتني قدماي .. عندما أرى عيني قطة .. عندما أشم عطر ياسمينة .. تضيء في جوف المحيط شمعة ، وأعود الى حلمي القديم !

تعالت فجأة من أسفل الجبل أصوات تشق الظـلام .. صفارات الشرطة .. اجراس الاسعاف والمطافىء .. ووحدات الانقاذ .. والدفاع المدني .. ولجان الانحاد .. ومندوبو الرياسة والنقابات .

هب الفأر هامسا الى فأرته :

ـ لنهرب .. اقدام الدمار .. آتية .. تدب بسرعة نحونا .

قالت الفأرة باحتقار وهي تجري لاهثة في اعقاب زوجها :

ـ يقولون انها المدنية .. جلبة عالية .. تسحق كل شيء فـي طريقها .. اسراب جراد .. تتغذى على انغام الجاز والخنافس .

دب الارتباك في قلب زيد . احس بقوة تدفع ساقيه ، وتطلق لهـا العنان . نزل من الجبل يتدحرج . يلهث . يتخبط . اصيب في جبينه .. وركبتيه .. تمزق سرواله ، والتوت ساقه . ظل يعرج نازلا . فقـد توازنه اكثر من مرة . ارتفعت ذراعه في الهـواء ، وانفرجت أصابعه . جرى .. جرى .. من الجانب الآخر . انه لا يريد ان يلتقي بالبوليس. يريد ان يفلت بغنيمته ولا يريد تحقيقات ومحاضر .. وسين وجيـم .. وبخاصة انه ترك بطاقته بالبيت في جيب سترته .

فتح زيد باب غرفته . القى بنفسه على اول مقعد لقيه ، وهو على اي حال المقعد الوحيد في غرفته . كرسي صغير مستدير بمسند مـن القش . ماءت قطته وتمسحت بساقيه . اغمض عينيه برهة ، ثم تذكر اصبعيه .. السبابة والابهام .. رفع راحته اليمنى سريعا .. حملـق فيها .. كانت فارغة . رفع يده الاخرى في رعب ، وهو يعلم ان مـا يبحث عنه كان في يده اليمنى . انتفض واقفا ، وصرخ :

ـ الزهـرة !

ثم صاح في حسرة :

ـ البذرة ! الذرة !

سقط على الارض يبكي . مد ذراعيه المتسلختين يمسك بهما ظهر الكرسي وقد دفن وجهه في قاعدته .

لكنه ما لبث ان هب واقفا . ربما وقعت منه على السفح الآخر من الجبل . أجل . هو ذلك . دبت الشجاعة فـي اوصاله . شمخ برأسه عاليا ، ونظر الى الشمس التي بدأت تطلع عند الافق ، وتبسط أشعتها البرتقالية على أسطح المنازل وواجهاتها الشرقية . أجل ، وقعت هنـاك بين الصخور .. في مكان ما .. في فجوة ما .. في جحر ما .. هـي هناك .. في الجانب الآخر من الجبل .. لن تطولها يـد احد غيره . لا احد غيره يعرف انها سقطت .. هو وحده سيعثر عليها .. سيجـد في البحث عنها .

سيصعد وينزل ويصعد يبحث عنها . انها كانت في يـده . ذات يوم كانت معه . كانت في قبضته . في حوزته .. أي ريح مشؤومـة اطارتها من بين اصابعه .. أي نحس ذلك الذي حل به لحظة انحداره على الجبل . هل كانت بين أصبعيه حقا ؟ هل كانت ؟! متى ؟! أمس . عادت قطته تموء .. كم يبدو ذلك الامس بعيدا .. كانت معه .. في قبضته .. انـه يذكر جـده الاكبر .. كاتم الاسرار السموية .. وعم عمه البعيد .. أمين الاسرار التي لا يراها الا شخص واحد . وجد جده الآخر ركب البحر الى اقاصي بلاد بنت .. امواج .. رمال بيضاء .. رمال صفراء .. امواج .. امواج .. صخرة فتتت .. سحقت ذرات .. مدائن مطموسة .. جـزر غارقة .. آلاف السنين .. نجوم كثيرة .. نجوم كثيرة .. تلمع وتضيء .. ثم تخبو .. وتهوي .. وتضيع .. كأنها لم تكن .. ثم تعود الى صفحة السماء الداكنة المترامية فوق هامات التلال والجبال . ما اندثر اكثر مما وصل بكثير .. جدران ونقوش وقلائد وتماثيل ترقد صابرة صامتة تنتظر .

نظر زيد فيما حوله شاردا ، وصاح يقول :

ـ آلاف السنين في الظلمة .. كفاك .. انتهت البراءة .. العقوبة انقضت .. انهض .. انفتحت الابواب الصدئة . انفتحت التوابيت.

ثم جملق في احد الاركان ، وقد انكمش . ومضى يحدث نفسه :

ـ انشقت الارض .. خرجت حشرة .. ذات سيقان من القطيفة..

قفزت القطة الى النافذة المواربة .. كان بين أنيابها فأر رمادي .. واختفت خارجة .

سيغربل كل تراب الجبل . سيدقق النظر في كل حصاة . صغيرة كانت او كبيرة .. مستديرة او مضلعة . لن يتعلل ببعـد المسافات ، وتعذر قياسها . ليس ثمة جسم لا يعثر عليه . لـن يثنيه زمهرير او جحيم او سم . لن يعود الى جحره خاوي اليدين .. فهو ليس حشرة. هناك عنصر في صالحه دائما .. فالاتجاهات يمكن ان تتغير ، وسيعالج النظريات القديمة معالجة جديدة .. وسيكتشف منهـا جديدا تلـو جديد . ان الخيال على حق ، ولكن من أجل أن يصدق ذلـك يجب الا يحسب الامر بحساب السنين والقرون ولا حتى بالحضارات ، بـل بحساب الزمن اللانهائي . الزمن الذي يتضمن امكانيات غير محدودة . سوف يلحق جسمه بخياله . وسيثبت ان كل شيء ممكن .

نهض زيد . ومضى الى المرآة المشروخة المعلقة على الحائط فـوق الحوض . اخذ يحادث نفسه امامها كما لو كان يريد ان يستمد مـن صورته عزما جديدا . سيمسح سفح الجبل شبرا شبرا ، وهو واجدها. النقطة الجدباء التي تنتهي اليها خطواتنا .. نظراتنـا .. انفاسنا .. اسماعنا .. صرير اسناننا .. كل خلجاتنا وهواتفنا .. ربما لـم نكـن مواتا .. ربما كانت التحذيرات باطلة .. او ربما لم نقرأها كما يجب.. ربما .. ربما .. ربما هذه تعذبنا .

انعم زيد النظر الى هالتين من السواد حوطتا بمقلتيه .

ربما هذه تعذبنا .. تقض مضاجعنا .. لكن .. لا بـد ان نواجهها بعيون مفتوحة . بآذان مرهفة .. بيقظة وتشوق .. بلهفـة وترقب .. لا بد ان نحدق في الظلمات .. ونرهف السمع فـي الفلوات .. وان نكون في كل لحظة على اهبة الانتظار ، ولا نقول : لا شيء .. فربمـا تنبت في صحراء الصمت همسة .. ربما تومض في السماء الضريـرة ومضة .. ربما هبت على الجذور الجدبـاء نسمة .. ربمـا اشتدت سواعدنا وتسلقنا الجدار .. ربمـا انفتحت النوافذ المغلقة وهتكنـا الاسرار . ربما امطرت السحب السوداء .. ربما تفجرت الينابيع فـي البيداء ، وانحسرت الرمال من طريقنا ووصلنا الى واحة واسترحنا .. ربما حالفنا الحظ ، واكتشفنا هـذا الذي يؤرقنا .. مـن يدري ؟ ربما .. ربما ..

ابتعد زيد عن المرآة .. ادار لها ظهره ..

أجل ، انه واجدها . ايها القلب الحافل بالاحلام .. بلواك اعرفها .. اليدان في الوحل غارقتان .. من يدري ، قد تصحو ذات يوم فترى

اليدين السمراوين عامرتين بالنجوم ـ بعد ان طهرهما المطر .. لـــن يكون لسعادتك ، ايها القلب ، عند ذلك حدود .. ولن يقف عائق فـــي طريقك بعد ذلك .. ستصبح ، ايها القلب ملكا على الحقول والصحاري والبحور .. وتتحقق فيك معجزة مثل تلك التي حققها السيد المسيح عندما بارك وكسر وكثر السمك .

هدأ روعه ، وسكنت الانتفاضة في اوصاله .

هز رأسه . اجل ، غدا عندما يهبط الليل من جديد ، ويصبح اكثر الناس عزلة .. سيصبح اقوى البشر .. وحدتـــه ستملأه قـــوة .. سيستجمع شتات فكره ويركز على كل خطوة خطاها ليلة امس .. كـــل قفزة قفزها .. كل شبر سلكه .. كل موضع انكفأ فيه .. سيقتفي آثار اقدامه صاعدا نازلا الجانب الآخر من الجبل .. وفـــي هدوء وحدتـــه ستوانيه أعمق الافكار واكثرها صوابا ، وسيبحث بلا انفعالات .. بـــلا جلبة عالية .. بدقة وأمانة .. هكذا قال له « ايكاروس » . ولا يمكـــن ان ينسى ما قال .

لكن الساعة تقترب من الثامنة . عليـــــه الآن ان يتهيأ للديوان . أغتسل .. حلق ذقنه . مشط شعره . عقد ربطة عنقـــه حول عنقه . وتأكد من ان حذاءه لم تعلق به ذرة من تراب او لطخه شيء من الطين . ثم جمع تقاريره وطوى حقيبة اوراقه . جرى الـــى محطة الاوتوبيس ليوقع فـي الساعة المواقتية فـــي الساعـة والدقيقة اللتين حددتهما التعليمات ، والا تعرض للجزاءات . وعليه ان يبدو عاديا طوال النهار.. مبتسما متفاهما . يجب ان يبدو اجتماعيـــا رياضيا ظريفا متسامحا يضحك لكل نكتة. بالنهار هو ما يريده الناس اما بالليل فهو انسان حر.

قبل ان يدير مقبض باب غرفته تأكد من ان ازرار سترته في محلها، وعلى الاخص زرها الاوسط . فلا يقبل المدير مـــن احد ان يعرض عليه اوراقا الا وقد عقد سترته . القى زيد نظرة اخيرة في المرآة ليتأكد من انه يلبس قناع الانسان اليومي حتى لا يثير حوله الشبهات ، فيعـــوق ويمنح عملا اضافيا في المساء . ويفري بأجر اضافي سخي ، وهو ضعيف امام المغريات . سيحوط بـــــه الشرطة وحاملـــو الحدسات واجهزة التسجيل والابواق ، وتكتب عنه الجرائد وتنشر صوره فـــي المجلات ويدعى الى الندوات ، وعندئذ سيكون نجما فـــلا يصعد الجبل ، ولا يظفر بخلوته ، فلا ينسنى له ان ينقب في كل شبر من السفح . وربمـــا جرفته اللجان والاجتماعات والمحافل والمهرجانات فينسى انـــه امسك بأصبعيه ذات مساء بذرة صغيرة .. قد تكون وهما او خيالا او ربمـــا حلما ، لكنه لا زال يشعر بوزنها الاثيري وبملمسها على جلده .. انهـــا مستقرة الآن في مكان ما بين الحجارة او تحت نبات شيطاني ينبت مـــن تلقائه على الجانب الآخر من الجبل . عليه ذات يوم ان يجد في البحث. يترك المدينة الساجية في البالوعة المضيئة تحت .. ويصعد ويصعد .. سينبش التربة حتى باظافره في كل مكان .. فـــي التراب .. بيـــن الحجارة .. سيقلب الصخور واحدة واحـــــدة .. سيقتلع شجيرات الشوك وليدم جلده ولحمه ، وليغل دمه وليتفجر . وليسل خيوطـــا رفيعة لزجة على ساقيه .. سيجدها في النهاية .. ذرة اثمن من اغلى قطعة من الماس .. مستحيل ان يكون كل هذا العناء عبثا بلا طائل .. من غير المعقول ان تكون النتيجة لا شيء .. غص .. غص في المادة حتى تجد الروح .. يجب ان يجدها .. يجب ان يصعد اليها اذا كانت فوق .. ان ينزل اليها اذا كانت تحت .. كان يجب ان يجدها .. كان مـــن المؤسف الا يجدها .. ما اجمل الحياة .. النجـوم والزهـر والسمـك والارانب .. وانين السواقي في الحقول .. ما اجمل الحياة.. فراشات الصيف واوراق الشجر .. والريح تهمس وتصرخ وتلين .. الكـــلاب الوفية تنبح .. والبومة تصلي .. وعيون القطط لا تطرف .. والثعابين تزحف .. ما اجمل الحياة ، وما اتعس اولئك الذين ماتوا .. الاعشاش على الاغصان لازالت مليئة بصغار الطير . .والشمس لا زالت تحرق وتضيء .. والبحر يهدر .. والحجر يخضر . والقمر الفضي يلمع وراء السحب .. والاشباح تحت الجسور .. والدموع لا زالت حارة على الوجنات .. والذهب لا زال محط الطامعين .. والطواحين تدور وتطحن وتدور .. وخرير المياه .. من بعيد .. من بعيد .. ما اجمل الحياة، وما اتعس الذين يموتون . . الناس الذين يبتسمون وينقضون مثـــل الوحوش لا زالوا يبتسمون وينقضون .. والنساء الناعمات مثل الحرير لا زلن يفحن في المخادع بالعطور .. بينما ظلمة الليل تتحول الى نهار .. والعصفـور مخضب بالدمـــاء من رصاصة الصياد .. كل شيء كما كـــان .. الوقت يمر ولا أعرف ماذا افعل .. انام واصحو فـــي المكان ذاته .. كل شيء كما كان .. ما اتعس الذين ماتوا .. سحقتنا اقدام حديدية .. ما أتعسنا نحن .. سوف يجدها .. انه يسمعهم في طريقه يضحكـون .. يسمعهم في الظلمـات يسخرون .. انه يسمعهم .. يهمسون ويهمسون ((يا له مـــن احمق ذلك الذي يحملق في الظلمات عله يهتـك الحجاب .. ذلك الذي يصعـد الطريق عله يبلغ السحاب ! الا يعرف انه بعـد ايام او ساعات ، او ربمـا بعد لحظات .. ان عاجلا او آجـلا في التراب سيرقـد كومة من العظام البالية .. مثلنا ؟!)) سوف يجدهـا . .فعدم الوجود يعني العدم او وجودا كأنه العدم .. نحن نتولد كالارانب ، ونموت كالذباب ، ولكنـا لا نحيـا مثـل الارانب، ولا مثل الذباب . عقولنـا الصغيرة تجهد طوال الحياة في مشكلـة لا تجهد الارانب ، ولا تخطـر ببـال الذبـاب .. اننـا نتساءل فـــي جحورنا : لماذا نحيا ؟.. وعندما ننفرس فـي القاذورات نصرخ ، ونصرخ ونصرخ : لماذا نموت ؟ .. بينمـا نحن نتوالد كالارانب ، وكالذباب نموت .. وبعد ان كان جد جده كاهنا اكبر .. وربما فرعونا .. سيكـون غدا عبـدا مملوكا . .جيفة تقذف بها امواج الفضاء الى كوكب سديمي .. لـن يقول لن يجد .. لن يفقل الاشياء الصغيرة .. كل ما هـو عابر سريـع الزوال سيوليه اهتمامه .. حتى لو كـان دخانا في الهواء، او نسمـة ريح ، او حفيف غصن او زبدا متطايرا من امواج متلاطمة، او ذبالة شمعـة على وشك ان تنطفىء .. سيصم اذنيه عن كل هواتف الفشل .. واذا لم يجـد بغيته فخير لـه ان يموت وهو يبحث مـن ان يفترس وهو جالس على المقهى بيـن قطيع من الاغنام تثغـو وهـي تعتقـد انهـا تزأر .. مفروزة في مرحاض وهي تظن انهـا قد فكـــت وثاقها ، وتأهبت للانطلاق . .هي تركب معدية مليئة بالثقوب .. يصيح فيهم الجرسون . .في داهيـة من يموت ... ولا شيء .. ولا شيء غيـر ذلـك .

نزل زيـد الدرجـات .

نافورة الميدان جفت . .الشوارع خلت .. النوافذ شاغرة ... الغيران في بئر السلم ، تجري على بطن القطـة الرمادية ، وتنهش .. كل السكـان ماتوا ،حتى البواب على دكته الخشبيـة غاب في سبات عميـــق .

نعيم عطية

عاشق من فلسطين

لشاعـر المقاومة
في الارض المحتلة

محمود درويش

منشورات دار الآداب ٢٥٠ ق. ل